أثرُ الخطابِ العلوي في المجتمع الكوفي
في ضوء النظرية التواصلية

The Effect of the Alawyan Discourse upon the Kufi Society in the Light of the Communicative Theory.

أ.م.د عبدالحسين عبدالرضا العَمْري
كلية الآداب / جامعة ذي قار

أ.م.د جنان منصور الجبوري
كلية التربية للعلوم الانسانية/جامعة كربلاء

Professor Assistant Doctor Abdul-Hussein Abdul-Ridha Al-Amri
.The college of Arts, The University of Dhi Qar

Professor Assistant Doctor Jinan Mansoor Al-Juboori
Faculty of Education for Human Sciences, The University of Karbala

ملخص البحث

النظريةُ التواصلية التي استند البحث إليها في قراءة أثر الخطاب العلوي في المجتمع الكوفي البعيد زمنياً ، استطاعت انْ تحدّد بما ليس يقبل الشكّ انّ الامام عليا (عليه السلام) حقّق نجاحاً باهراً في انْ تصبح الكوفة ضمن حيازتها العقائدية من خلال حرصه على إدامة التواصل معها في حياتها بناءً على التبادل والتبليغ والتأثير ، بل وانْ تتحوّل إلى مكان يحمل راية الثورة العلوية ضد كل سلطة باغية تحاول انْ تفتّت ذلك الإنشداد والانصهار من قبل المجتمع الكوفي في الفكر العلوي حدّ الذوبان حتى تحوّلت قلعة علوية بامتياز ٠ كما انّ البحث يشير الى أهمية التواصل عن طريق تقديم قراءة لأثر الخطاب العلوي في المجتمع الكوفي وبيان أهمية الخطاب في معطياته النصية والدلالية في سياق تواصلي كيف استطاع انْ يصهر تلك التوجّهات المختلفة في اتجاه واحد وهو من جانب آخر يشي باستثمار الزمن ووقائعه استثماراً أيديولوجيا في غاية النجاح وبناء توجه مجتمعي حضاري ينتمي الى لحظته التأريخية الأولى دون انْ تهتزّ المشروعية الثورية التي أرادها له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

Abstract

The communicative theory upon which this paper depends to introspect the The Alawyan discursive effect on the Kufi socity (that is historically far from our current time) could undoubtedly specify that Imam Ali (Peace be upon Him) was successful in making Kufa being subject to his creed by means of His assiduous efforts to keep contact with its life based on reciprocation, preaching, and pulpit. Moreover, Kufa as a result to this discourse was converted to be an ensign face to face with every a dictator power trying to divide and conquer this society. It was fond of this discourse to the extent that made it a pure Alawyan fort. Once again, the research points at the importance of communication through reading the effect of the Alawyan on the Kufi society, revealing the semantic and textual significance of this discourse within a communicative context. It also explain how this discourse was able to unify different ideologies in one ideology successfully under the leadership of Imam Ali.

الكوفة من التأسيس إلى مركزية الدولة

بعد أنْ أصبحت الكوفة عاصمة الدولة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، عمل على نشر الوعي وثقافة التوحيد الديني بين أفراد المدينة مستغلاً قدرته الخطابية الهائلة وطريقته المبهرة في عرض أفكاره ، وكان حواليه من مريديه وطلابه مَنْ كانوا سيمثلّون أقطاب الحركة الفكرية والثقافية في المدينة في قابل الأيام ، وانتشارهم بين أوساط الناس كان يعدّ أسلوباً تعليمياً ناجحاً في بثّ الوعي بين المسلمين ، كما أنّ وجود مسجد الكوفة في المدينة وارتياده من قبل المسلمين ، كان يوّفر لأمير المؤمنين علي عليه السلام فرصة مناسبة لمخاطبة أكبر عدد ممكن من المسلمين ، فهو كان يقول دائماً من على منبر الكوفة (لو سألتموني عن آية في ليل نزلت أو في نهار أنزلت ، مكيّها ومدنيّها ، سفريّها وحضريّها ، ناسخها ومنسوخها ، محكمها ومتشابهها ، وتأويلها وتنزيلها ، لأخبرتكم...)[١]، بالإضافة إلى أنّ صاحب كتاب المناقب ذكر أنّ أصحاب القراءات السبعة كانوا يرجعون إلى قراءة أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وأنّ الكسائي وحمزة كانا يرجعان إلى قراءته وقراءة عبدالله بن مسعود[٢].

وقد كانت الكوفة تعجّ بالحركات الثقافية والديانات المتعدّدة ، وكل ذلك كان يمثّل منبعاً للمرتادين ، وطريقة لأصحاب الديانات والمذاهب في عرض أفكارهم ، وكسب الناس لأفكارهم مستغلين بساطة الوعي لدى الكوفيين في بداية تأسيسها ، من جهة الاعتقاد الديني ؛ حيث يروى أنّ اليهود الذين قام الخليفة عمر بن الخطاب بترحيلهم سنة ٢٠ هـ إلى العراق ، والكوفة تحديداً، على سبيل المثال ، حاولوا مراراً بثّ أكاذيبهم وشعوذتهم وسحرهم بين الناس من خلال استغلال انشغال المسلمين بالفتوحات آنذاك[٣]؛ إذْ كانوا يقومون بأنشطة مختلفة منافية للقيم الثقافية والعبادية الإسلامية ، ومن ذلك أنّ أحد اليهود كان يلعب بالشعوذة والسحر قد استدعاه والي الكوفة آنذاك من قبل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كان هذا اليهودي يسكن في ضاحية من ضواحي الكوفة ، وقد أدخله إلى مسجد الكوفة وعمل اليهودي على إظهار فيل عظيم على فرس يركض في صحن المسجد ، ثم تحوّل اليهودي من خلال السحر ناقة يمشي على حبل ، ثم أراه صورة حمار دخل من فم اليهودي وخرج من دبره ، بالإضافة إلى أعمال سحرية منافية للدين والشرع .. وكل ذلك جرى في مسجد الكوفة أمام مرأى ومسمع من المسلمين[٤]، وهذا يعني أنّ هناك ثقافة مناوئة للتوحيد الإسلامي بدأت تبرز في الكوفة ، تعيد إنتاج توحيد قائم على الشعوذة والسحر بعيداً عن المنهج العقلي والفكري الذي نادى به الدين الجديد ، وأن هناك مريدين ومشجعين لذلك يقفون على قمة السلطة ، مما ينذر بخطورة كبرى على الدين الجديد وعلى مبادئه.

بالإضافة إلى دخول العامل الاقتصادي على الخطّ ؛ إذْ كان له أكبر الأثر في بناء وعي المجتمع المسلم الجديد ، الذي قام على أساس الطبقية التي أنشئت أيام الخلافة الاولى في عصر أبي بكر وعمر بن الخطاب؛ إذْ أنّ الخليفة عمر (أعطى العطايا على السابقة (في الاسلام) ، وبدأ بعمّ رسول الله (العباس) ثم الأقرب فالأقرب ففرض للعباس وبدأ به ثم فرض

لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية إلى أنْ أقلع أبو بكر عن أهل الردة أربعة آلاف أربعة آلاف ... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ... فكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً وأعطى نساء النبي (صلى الله عليه وآله) عشرة آلاف عشرة آلاف)[٥]، وبذلك أعطى جرعات تقوية للطبقية الاقتصادية في المجتمع المسلم الجديد الذي لم يمض على تأسيسه سوى ربع قرن تقريباً ، في الوقت الذي نرى أن الخليفة نفسه حينما أدرك خطورة تلك الخطوة التي تؤسس لهذه الطبقية المقيتة ، أراد أنْ يعيد النظر في ذلك ، حتى دعاه إلى القول(إني كنت تألّفت الناس بما صنعته من تفضيل بعض على بعض ، وإنْ عشت ساويت بين الناس.. وصنعت كما صنع رسول الله -صلى الله عليه وآله-) [٦]، وهذا يعني اعترافاً خطيراً من الخليفة أنّ قراره السابق هو هدم لأحد مبادئ الدين الجديد وهو مبدأ العدالة ، من هنا أراد التراجع عنه ، لكن القدر لم يمهله ، وبذلك فتح الباب واسعاً أمام تعميق هذا السلوك الطبقي في ما تلاه من سنيّ الحكم أيام الخليفة عثمان بن عفان ، الذي فعل أكثر من ذلك حينما حمل بني أمية على رقاب الناس وجعل الطبقية منهجاً سلطوياً طوى تحته آخر نقطة يمكن أنْ يقف عندها المجتمع لمراجعة ذاته وسلوكه وإعادة الطهارة الثورية الأولى التي جاء بها الإسلام أيام الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) ، كما أنّ بقاء المجتمع العربي يعيش الثقافة الجاهلية التي لم يستطع الناس مفارقتها بفعل تغذيتها بروحه القبلية التي تعني له الوجاهة والطبقية الاجتماعية والثراء وغير ذلك من تفضيل بعض القبائل بحسب الانتماءات العائلية التي كانت تمارس أيام الجاهلية ، بالرغم من أنّ الإسلام جاء من أجل القضاء عليها إلاّ أنّه لم يفلح إلاّ في الإبقاء على نوره الوهّاج عبر تضحيات أهل البيت والمدافعين عن مبادئ الدين من المخلصين الأتقياء ، فبقي نظريات تزهو بها الكتب على رفوف التاريخ الأيديولوجي.

لم يستطع المجتمع الكوفي مفارقة كل تلك الممارسات القبلية والارستقراطية والسلطوية ، والتلبّس بالنورانية الاسلامية في السلوك الفردي والمجتمعي على حدّ سواء ، بل كان دائماً يمارس عملية استجلاب لكل موروثاته الجاهلية ويُسقطها على مبادئ الدين الجديد فيلوّنها بلون اسلامي ويطرحها على انّها مفردات تنتمي للدين الجديد ، مما يعني خلق مناخ مناسب يتناغم والرؤية الاستهلاكية لتلك المسوغات من قبل السلطة ، وهو ما دفع أمير المؤمنين الإمام عليا (عليه السلام) إلى محاولة التأثير على الثقافة المجتمعية من خلال رؤية ثاقبة قادرة على تشخيص العلل ودوائها ، وبثّ الوعي بين أفراد المجتمع الكوفي محذّراً ومنبّهاً إلى خطورة ذلك ، للتأثير قدر الإمكان لأجل تصحيح تلك المسارات الخاطئة .

أثر الخطاب العلوي والنظرية التواصلية

يكون الاعتماد على النظرية التواصلية في فهم أثر الخطاب العلوي في المجتمع الكوفي ، بناء على معطيات ثلاثة[٧]:-

١- الفهم العقلاني .

٢- ربط الإجراء بالمؤسسة.

٣- النظر العقلي والتواصل .

وهي بذلك تحدّد المسارات التي يمكن من خلالها فهم طبيعة الخطاب ومستوى تأثيره في حركة المجتمع ، والنتائج المتحققّة إستراتيجياً من وراء ذلك التأثير ، وعليه لابد من مقاربة تحليلية لما طرحه أمير المؤمنين عليه السلام في ما يخصّ هذا الموضوع ، من خلال ما عرضته الخطب والرسائل في نهج البلاغة .

إنّ التواصلية تعني (إقامة اتصال مشارك بين كون فضائي مرسِل أ ، وكون فضائي مستقبِل ب)[٨]؛ ما يعني أن إشراك شخص أو مجموعة أشخاص أو هيأة في نقطة معينة في تجارب شخص آخر قد اتخذ مكاناً آخر ضمن زمن آخر ، أي أنّ التواصلية يعدّ فيها الزمان والمكان والفكرة المرسلة أو الرسالة أدوات إجرائية ، بالإضافة إلى المرسل والمستقبل اللذين هما يتخذان من تلك الأدوات الإجرائية وسائل اتصالية باعتبار أنّ المجتمع هو مجموعة من الأجزاء المتميّزة التي يتحدّد كل منها بوظائفه المعينة له أو أهدافه[٩].

كما أنّ هناك من عرّف التواصلية على أنّها (العملية التي بها يتفاعل المراسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة)[١٠]، فهي عملية تفاعلية صرفة تقوم على مرسل – مرسلين ومستقبل – مستقبلين ، ويتمّ هذا التفاعل في سياقات اجتماعية ترتبط بالوظيفة ووظائف التواصل ثلاث هي[١١]:

١-التبادل.

٢-التبليغ.

٣-التأثير.

وسواء أكان التواصل فردياً أم جماعياً، فهو يجري عبر الرسائل اللغوية وغير اللغوية قصدياً؛ لأنّ القصدية تكون غالباً حاضرة في العملية التواصلية مما ينشئ جسوراً تقوم عليها العملية برمتها.

وعلى هذا الأساس كان الخطاب العلوي قد عمل على تنشيط هذه الوظائف التواصلية في المدينة الجديدة ، التي ربّما لم يدخلها الإمام (عليه السلام) سابقاً ، إذ لم يشر أحد من المؤرخين أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد وصل إلى هذه المنطقة من قبل ، لكن ذلك لا يعني أنّه لم يكن على اطلاع كامل بالحركة المجتمعية التي تعجّ في المدينة ، فهو كان على تماسّ كامل مع الخلفاء الذين سبقوه ، ولعل حادثة جلد والي الكوفة من قبل الخليفة عثمان خير شاهد على معرفة الإمام عليه السلام بكل صغيرة وكبيرة في الكوفة[١٢]، واطلاعه من خلال محبيه ومتابعيه والمعتقدين بولايته ، قد عمل على تهيئة قاعدة متينة تأتمر بأمره وتستجيب لمطالبه ، ولعل مجموعة الصحابة التي كانت تشايعه من أمثال سلمان وعمار وحذيفة وغيرهم من الأتباع كانوا خير رسل عنه إلى تلك المدينة ، لاسيما أنّ عمار بن ياسر كان والياً عليها أيام عمر بن الخطاب[١٣].

التبادل تواصلياً

إنّ ولادة الكوفة – المدينة ، لم تكن قيصرية أو استثنائية ، لكي تشغل مساحة من الجغرافيا والتاريخ السياسي أو الاقتصادي في حياة حضارة كبرى ، كالحضارة الإسلامية أو دين كالدين الإسلامي ، بل كانت ولادتها تتناغم مع حركة التاريخ في جدليته للتعبير عن الذات الإنسانية ؛ إذْ أنّ عناصر الضغط التأريخي في ولادة الأشياء تلتئم مع حركة الكون

الكبرى ؛ لكي تصل الحياة إلى مرافئها الآمنة ، وما اتخاذها عاصمة للدولة الإسلامية، بالرغم من أنّ البصرة سبقتها في التمصير، وكذلك سبقتها في التمدن ؛ حيث نشأت فيها المدرسة العلمية الأولى ،إلاّ دليل على ذلك الالتئام مع حركة الكون ،فالكوفة تحوّلت إلى المقدمة لتأخذ زمام المبادرة لاحقاً على المستوى السياسي والحضاري والمدني ، ولم يكن مجيء أمير المؤمنين علي(عليه السلام) إليها لاتخاذها عاصمة إلاّ قراءة استراتيجية في الوقت الذي كانت فيه تعبيراً عن اقتران بالماضي المنبعث من بين فجوات الظلام الدامس الذي أحاطها يوماً ، بالمستقبل المنطلق في رحاب الفضاءات الوارفة التي تتنسم عبير الحياة الحقيقية الموعودة .

عاشت الكوفة ولادتها الإسلامية على أعتاب معسكر للجند ، لكنها ما لبثت أنْ تحوّلت إلى مدينة نشأت عفوياً ؛ لأنّها تنتمي إلى ذاتها أولاً ، وإلى محيطها ثانياً ، وهذا يؤكّد ضرورة إنجاز فعل تأثيري في صياغة الرؤية المستقبلية للمجتمع الكوفي ، والإشارة إلى أهمية تنمية الذات عبر انفتاحات عقلانية باتجاه دائرة الضوء الفكري الذي ينير كل زوايا الظلام التي تختبئ فيها الزوائد الطفيلية المنتمية للضلال ، لصالح فلسفة تاريخية تقوم على إنتاج وعي يتمثّل الإسلام بوصفه إيديولوجيا قائمة على نقد الذات وتقويمها ، وقد أرسى أمير المؤمنين عليه السلام أثراً فكرياً من خلال الخطاب ، بدأه قبل لحظة وصوله الكوفة ، عن طريق وصف أهل الكوفة بأنهم جبهة الأنصار وسنام العرب ؛ إذ قال :

(من عبدالله أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار وسنام العرب..

أماّ بعد ، فإنّني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه .....وأعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ، وجاشت جيش المرجل ، وقامت الفتنة على القطب ، فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم إن شاء الله.)[١٤].

يمارس النص إعلائية فاحصة للكوفة بعيداً عن التقول الفارغ ، أو ممارسة النفخ في صورة مدينة ميتة ، بل يذكرها على أنّ أهلها هم جبهة الأنصار وهم سنام العرب ، وهي كلمة قالها أمير المؤمنين عليه السلام ، ليس على سبيل المماراة أو الاحتفالية الباختينية[١٥] من أجل أنْ يستدرّ عاطفة أو أنْ يمارس تدليساً شعبياً ، بل كان تعبيراً ينمّ عن قراءة لوقائع تستجدّ عبر زمكانات غير مؤشرة على جبهة المنظور ، ففي قوله (...وأعلموا أنّ دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ، وجاشت جيش المرجل...) إشارة قصوى إلى نهاية قريبة زمنياً بعيدة ذهنياً ، وهي أنّ دار الهجرة أي المدينة المنورة لم تعد تصلح له سكناً ومقاماً ، وهو إخبار يتسم بالعنف المتشح بغلالة من شفافية اللغة المنسابة ، ثمّ يعطف بقوله (وقامت الفتنة على القطب ، فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم إن شاء الله) وهنا افتتاح لقائمة سجل الأحداث التي بدأت مع الفتنة الناشبة تواً على القطب ، ويعني به نفسه ، حتى ينتهز هذه الفرصة فيأمرهم بالإسراع إلى أميرهم ، يقصد نفسه أيضاً ، وهو هنا ينسب نفسه إليهم وينسبهم إليه من خلال استعمال كلمة (أميركم) وهي التفاتة بارعة من أمير المؤمنين (عليه السلام) تشير إلى ذلك التوحد المستقبلي بين أهل هذه المدينة

وبينه بوصفهم ينتمون إليه ، وهو هنا يستثمر اللغة بطريقة غير اعتيادية ؛ لأنّ (التقاط التعالق بين الأشياء ووحدتها الصميمية ليس مبدأ منهجياً وحسب ، بل مبدأ علمي أيضاً) [١٦]، وهو إنمّا يعبّر كذلك عن رؤية غاية في الدقة والشمولية التي تستوعب الكون بأحداثه المتشعبة التي تخرج من أحشائه بغية تسجيل مسارات التأريخ بصدق ينبئ عن مشروعية الفكر العلوي بعيداً عن الضبط القسري لإيقاعاته المنطلقة ، إنّها لحظة يغدو فيها العقل مبهوتاً أمام ما يقدّمه فكر علي بن أبي طالب من قراءات تستثمر الواقع بكل تجلياته ، التي ربّما تحوّلت هنا أو هناك عن مساراتها حينما يرى تلك التجليات؛ لكنها في محصلتها تشير إلى تحولات قريبة؛ إذْ تحولت الكوفة إلى بؤرة للتشيّع الثوري ضدّ السلطات المتعاقبة ، ما يعني أنّ أثر الخطاب العلوي كان قد ضرب بجذوره في أعماق المجتمع الكوفي وحوّل بوصلة انقياده باتجاهه ، وهو استثمار يغمر الحياة بنوعية إنتاجه وضخامته المعرفية بله الكمية ، حتى تحوّلت الكوفة إلى منجم لا ينضب من الإرادة الثورية التي ضربت أروع الأمثلة في مقارعة الطغيان دون كلل أو ملل عبر تأريخ المدينة الطويل .

وتتعزّز تلك النظرة التواصلية مع الكوفة من أجل إعادة صياغة تاريخ جديد لها تنفض من خلاله تلك الشوائب التي شوّهت صفحاتها بسبب التحايل السلطوي عليها ومصادرة هويتها التي بدأت تنضج مع أول لقاء لها مع أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما انتهى من حرب الجمل ؛ إذْ كتب إلى أهل الكوفة قبل وصوله إليها ما يأتي:

(أمّا بعد ، فإني قد اخترتكم ، وآثرت النزول بين أظهركم ، لما أعرف من مودتكم وحبكم لله ورسوله ، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق ، وقضى الذي عليه)[١٧].

إنّ الإفصاح عن آليات التواصل المستقبلية تمثّل كشفاً عن مخبوء نظري من الخطاب العلوي المؤثّر يقترن بالزمان والمكان ، واستكناه مستقبل ناضج ينمو على أرض صلبة ابتغاء إصلاح زمكاني من خلال عدم القهر والاستلاب ، وعن طريق الاحتكام إلى نتائج التفكير العقلاني الذي ينتهي إلى حقائق ثابتة تستمدّ ثباتها من ذلك الفكر المشعّ غير المشوب بالمصلحة الذاتية ، والمتصالح مع الآخر لا على أساس النفعية بل على أساس الحقائق الموضوعية الثابتة التي تتجاوز القيود السلطوية القاهرة ، بحثاً عن فضاء مفتوح النوافذ دونما تنميط لأشكال التفكير والسلوك .

وبما أنّ التواصل هو الميكانزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطوّر ، فهو يتضمّن كلّ رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان ، وهو يستعين أيضا بتعابير الوجه وهيأة الجسد ونبرة الصوت والحركات فيما لو كان ذلك مواجهةً في المكان والزمان ، أمّا إذا كان التواصل يقصد مكاناً وزماناً بعيدين غير الذي يكون فيه المرسل ، فهو يستعين بالكلمات والكتابات والمطبوعات والتلغراف والتلفون ، وفي عصرنا الحاضر أصبح التواصل يستعين بكل شيء بفضل التقنيات التي استطاع البشر أنْ يحصل عليها[١٨].

التبليغ تواصلياً

بالرغم من أنّ الكوفة لم تصفُ لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) ، أو بالأحرى أنّها لم تكن موالية له بالكامل ، فهي – كما بيّنا- كانت متعدّدة الولاءات الدينية والسياسية ، لكن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) نقل عاصمته إليها ، وفي ذلك مفارقة كبرى ؛ لأنّ المتعارف عليه أنّ الحكومات والزعماء يذهبون إلى الأماكن التي يعتقدون أنّها تؤيّدهم بالكامل ، أو على الأقل لهم أغلبية تؤيّدهم ، أمّا أنْ يذهب حاكم مازال في بداية حكمه إلى مدينة لم تكن له فيها أغلبية ، بل يعلم أنّ فيها من أتباع أعدائه الكثير ، وفيها بؤر تركها الخلفاء من قبله تنأى بنفسها عن تأييده ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ومثال ذلك حينما دخل مسجدها الأعظم ورأى الناس يصلوّن جماعة ليلاً ، قال ما هذه الصلاة؟ قيل له إنّها صلاة التراويح ، قال إنّها بدعة وأراد منع الناس من أدائها ، حتى ضجّ المسجد بصيحة واحدة واسّنة عمراه[١٩]...!! ، هكذا كانت الكوفة حينما أراد الإقامة فيها وجعلها عاصمة دولته ، لكن ذلك لم يمنعه من اتخاذها عاصمة ونقل عائلته إليها للإقامة فيها ، والملاحظ أنّه بمجرد استشهاده في مسجدها ، رجعت عائلته بالكامل إلى المدينة المنوّرة وتركوه دفيناً في أرضها ..أليس هذا محلّ تساؤل ؟؟ ويستوجب علامة استفهام كبرى؟؟

لم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) (مغامراً) على سبيل التسلية ، بل كان بصيراً بما يفعل، حينما وضعت حرب الجمل أوزارها وفتحت البصرة ، أرسل كتاباً إلى أهل الكوفة نصه ما يأتي:-

(وجزاكم الله من أهل مصرٍ عن أهل بيت نبيكم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته ، والشاكرين لنعمته ، فقد سمعتم وأطعتم ، ودعيتم فأجبتم)[٢٠].

اتصف أهل الكوفة هنا بمجموعة من المواصفات لم ترد مجموعة هكذا كما في هذا النص المبتسر –للأسف- ؛ لأنّه لم يرد كاملاً : لكي تكون صورة المشهد كاملة ، ومع ذلك فإنّ النص قد أورد مجموع مواصفات لأهل الكوفة ، فبعد أنْ كان الدعاء بداية النص ، لأهل الكوفة مما يعني أنّ أهل هذه المدينة لهم منزلة خاصة عند أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ثم يقول عنهم (سمعتم وأطعتم ، ودعيتم فأجبتم) ، وهكذا يصفهم بالسمع والطاعة ، وهي من أحسن الصفات التي يوصف بها مجتمع معيّن من قبل الخليفة أو الحاكم أو الإمام ، وهو يستعمل أول عوامل التواصلية ، من خلال الإعلام والإخبار لأهل الكوفة ، وهو هنا يعزّز ثقة الكوفة بنفسها ، ويدعوها إلى بذل المزيد من الجهد في هذا الطريق ، كما أنّه استعمال دقيق لمفهوم التغذية الراجعة الذي تعتمد عليه النظرية التواصلية .

لكنّه في مواقف أخرى بعد اندلاع معركة صفين مع معاوية ، كان يشكو كثيراً من عدم الطاعة له ، وهو ما أفصح عنه بقوله :

(مُنيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتُ ، ولا يُجيب إذا دعوت ، لا أباً لكم ما تنتظرون بنصركم ربكم؟ أما دينٌ يجمعكم ، ولا حمية تحشمكم ؟)

ثم تابع كلامه متعجباً :

(أقوم فيكم مستصرخاً ، وأناديكم متغوثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة ..!!)

ثم يكشف عن تلك الحقيقة المرة :

(فما يُدرَك بكم ثأر ، ولا يُبلَغ بكم مرام ، دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسرّ ، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر ، ثم خرج إليَّ منكم جُنيدٌ متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)[٢١].

وهنا يستعمل لغة الخطاب من حيث الحاجة إلى ما يؤديه الخطاب عبر جمل قصيرة ذات حمولات معيّنة ، وبطريقة تنبئ عن شحن انفعالي طاغٍ في هذه الجمل ، يتمثّل في التفاعلات اللفظية وغير اللفظية التي تعدّ مرتكزاً هاماً من مرتكزات النظرية التواصلية في إقامة التواصل مع الآخر ، فقد تدرّج الخطاب من بيان الحال ، ثم يتوجّه إلى تعجّبية صارخة متسائلة تتخلّلها تلك المأساوية الطاغية فيها ، وأخيراً يكشف عن حقيقتهم التي اضطر لكشفها بما يجعل صورة هؤلاء قاتمة جدا أمام أنفسهم ، وهي من أنجع الوسائل في تحفيز الذات على ممارسة النقد تجاه ذاتها خلف الإطار النفسي وتحويله إلى خطاب بين-ذاتي عميق .

على أنّ التغذية الراجعة التي استعملها خطاب أمير المؤمنين (عليه السلام) هي للقضاء على التشويشات التي يبثّها أعداؤه هنا أو هناك ، وعليه تغدو العملية التواصلية أكثر نجاعة على المستوى البعيد استراتيجياً ، بما يحمل الزمان الآتي من كشف محوري لتلك الروح التي أرادوا لها أن يحجبها ضباب التشويش وظلمة الاستبداد .

التأثير تواصلياً

إنّ التواصل هو نقل واستقبال وتبادل للمعلومات والصور والوثائق بين طرفين أو أكثر ، علماً أنّ التواصل يعتمد على التغذية الراجعة في عملياته الاستقبالية والاستيعابية والتشويشية في إطار انزياحي منحرف يبغي صناعة فكرة نشطة تهيمن على الذاكرة الجمعية للمجتمع.

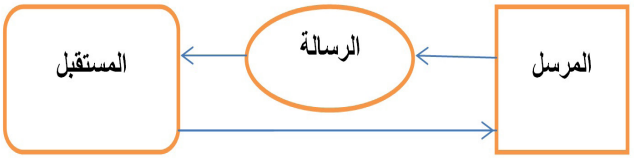

وللتواصل اللساني باستعماله الخطاب المباشر أثر مهم في عملية نشر الدوال من خلال الصور الصوتية والذهنية التي تتمدّد على سطح الخطاب بوصفه رسالة اتصالية بين الطرفين ، ولعل اللغة بناء على اعتمادها على الصور الصوتية والذهنية هي نوع من التلفظ المزدوج ، وظيفته التواصل ، حتى أنّ استعمال المنبر في تنفيذ تلك المهمة التواصلية من قبل أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإضافة إلى صفته الرسمية كونه الخليفة ، إنمّا يمنح تلك الكلمات شحنة انفعالية ومعنوية أكثر ، كما أنّ بيئة المسجد تتسم بتلك الحسية التي يستسيغها العربي بوصفه ينتمي إلى حضارة تتصف بالحسية، وتقدّس المحسوس أكثر من غيره ، على أنّ استعمال التقريع المباشر في عملية التواصل، إنّما تكشف عن الطبيعة البشرية المراوغة مجتمعياً ، الصادقة علوياً ؛ لأنّها لا تتيح مجالاً للتلاعب الكلامي ، بل تجعل الآخر صفحة مفتوحة من الممكن قراءتها بطريقة ذكية ، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) مخاطباً أهل الكوفة :

(يا أهل الكوفة ، منيت منكم بثلاث واثنتين ، صم

ذوو أسماع ، وبكمٌ ذوو كلام ، وعميٌ ذوو أبصار ، لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا إخوان ثقة عند البلاء .... يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها) حتى ينتهي إلى بيان الطريق الحقيقي الواجب اتباعه قائلاً:

(انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى...)[٢٢].

وبهذه الطريقة التي تعتمد النقد المباشر على وفق المنظور التواصلي المباشر إنّما يسعى إلى تنشيط العقل الناقد والضمير الذي يتعالى على الظرف الاجتماعي ، والربط بعالم تغييري مفترض لابدّ من حصوله يوماً ما بناء على مفهوم الصراع الثقافي الذي يخضع له المجتمع عبر جدلية مائزة في تفاصيلها الاغترابية التي جاء الخطاب متشحاً بها ، وتنتهي العملية التواصلية إلى الإشارة الغائية التي بنت دستور بقائها على أساس استراتيجي من الأيديولوجيا الثقافية التي لا بدّ أنْ تنتصر في لحظة حاسمة لتوحّد المجتمع وتهضم كل ما عداه من منظورات اعتقادية وجدت لنفسها حيزاً صغيراً ، لكنّها خسرته بفعل السحق الثقافي الذي يعدّ أحد تمفصلات الصراع الثقافي الذي يخضع له المجتمع عبر زمن طويل من التحولات ومن الانعطافات الحاسمة التي تترتّب عليها ولادة حقائق ناصعة تمارس مهمة إعادة تشكيل الوعي الثقافي للمجتمع بما ينسجم مع الرؤية العقائدية التي تصبح منتجة بفعل التحوّل التاريخي .

ويمكننا ملاحظة ذلك في خطاب إلى المدينة لا إلى أهلها :

(كأني بك يا كوفة تمدّين مدّ الأديم العكاظي ، تعركين بالنوازل ، وتركبين بالزلازل ، وإني لأعلم أنّه ما أراد بك جبارٌ سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل أو رماه بقاتل)[٢٣] .

إنّ محادثة المدينة بذكر إسمها في بنية كلامية لغوية ، وأنسنة هذه المدينة من خلال ذكر ما يجري عليها عبر التواصل ، إنّما هو استجلاب المستقبل على وفق فهم عميق لحركة التاريخ ، وقراءة مستقبلية تسبق الزمن في تحديد ماهية الحدث وطبيعته ، على وفق منظور أنطولوجي يتخذ من اغترابه المكاني والروحي مدماكاً يبني عليه عمارته في التحول المستقبلي الناضج ، وبذلك ينبئنا أمير المؤمنين (عليه السلام) عن تلك التحولات الكبرى التي تختمر تحت سطح الزمن لتعيد صياغة حركة المجتمع وثقافته في لحظات تاريخية حاسمة ، حتى باتت الكوفة – المدينة وأهلها حكراً عليه من خلال مراهنته على حركة الفكر العميقة التي تعيد إنتاج المدينة – المكان والمجتمع – بفاعلية قصوى ترتدّ في فعلها المسوّغ على أوسع نطاق.

نتائج البحث

الكوفة لم تكن مدينة حديثة النشأة ، كما أنّها لم تكن مدينة عادية في تكوينها وتأسيسها في بدايات القرن الهجري الأول ، في الوقت ذاته ، كانت مدينة حراك علمي وثقافي ، متنوّعة في أفكارها وسكانها في أديانهم ومذاهبهم وأهوائهم .

وأنّ نقل العاصمة الاسلامية إليها من قبل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لم يكن قراراً متعجّلاً أو مغامراً ، بل كان قراراً استراتيجياً ينمّ عن قراءة

دقيقة لمعطيات الواقع والمستقبل .

وفي ضوء النظرية التواصلية التي استند البحث إليها في قراءة ذلك أثر الخطاب البعيد زمنياً، استطاع البحث أنْ يحدّد بما ليس يقبل الشكّ ، أنّ الإمام عليا (عليه السلام) حقّق نجاحاً باهراً في أنْ تصبح الكوفة ضمن حيازته العقائدية من خلال حرصه على إدامة التواصل معها في حياته بناء على التبادل والتبليغ والتأثير ، بل وأنْ تتحوّل إلى مكان يحمل راية الثورة العلوية ضد كل سلطة باغية تحاول أنْ تفتت ذلك الانشداد والانصهار من قبل المجتمع الكوفي في الفكر العلوي حد الذوبان حتى تحوّلت قلعة علوية بامتياز.

كما أشار البحث إلى أهمية التواصل عن طريق تقديم قراءة لأثر الخطاب العلوي في المجتمع الكوفي ، وبيان أهمية الخطاب في معطياته النصية والدلالية في سياق تواصلي ، كيف استطاع أنْ يصهر تلك التوجهات المختلفة في اتجاهٍ واحد ، وهو من جانب آخر يشي باستثمار الزمن ووقائعه استثماراً آيديولوجياً في غاية النجاح ، وبناء توجّه مجتمعي حضاري ينتمي إلى لحظته التاريخية الأولى دون أنْ تهتز المشروعية الثورية التي أرادها له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

الهوامش

١- الطبقات الكبرى ج١٣٣/٨ .

٢- ينظر : مناقب آل أبي طالب لإبن شهر آشوب ج١/ ٣١٨ ، تحقيق وفهرسة د. يوسف البقاعي ،بيروت – لبنان ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤١٢ه – ١٩٩١م .

٣- ينظر: المناقب ج١ / ٣٢٩.

٤- ينظر : الكامل في التاريخ ج٣/ ٤ ، لإبن الأثير ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي ، بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، د.ت .

٥- ينظر مروج الذهب ٣٤٨/٢ ، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة – مصر ،ط٤ -١٣٨٤ه – ١٩٦٤م .

٦- تاريخ الطبري ج٢١٣/٤ ،طبعة دار التراث ، تح : مكتب التراث . د.ت.

٧- ينظر :النظرية النقدية التواصلية –يورغنها برماس ومدرسة فرانكفورت-٢١ ، تأليف: حسن مصدق ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب، ط١- ٢٠٠٥م .

٨- المصدر نفسه والصفحة .

٩- ينظر : في التداولية المعاصرة والتواصل فصول مختارة ٧، أ. مولز – ك . زيلتمان –ك.أوريكيوني ، ترجمة وتعليق د. محمد نظيف ، الدار البيضاء– المغرب ، أفريقيا الشرق ٢٠١٤م .

١٠- سيكولوجية الاتصال ، طلعت منصور ، عالم الفكر، الكويت، المجلد ١١ ، ١٩٨٠م .

١١- ينظر : سيكولوجية الاتصال ٨ .

١٢- ينظر : الكامل في التاريخ ٤/٣-٦ .

١٣- ينظر : المصدر نفسه ٤٣٢/٢ .

١٤- شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ج٨/١٤ .

١٥- إشارة إلى أنّ ميخائيل باختين الناقد الروسي هو واضع مصطلح الكرنفالية أو الاحتفالية في كتابه المبدأ الحواري ، ترجمة فخري صالح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت –لبنان، ط٢- ١٩٩٦م.

١٦- النظرية النقدية – مدرسة فرانكفورت – ٤١ ، تأليف آلن هاو ، ترجمة ثائر ديب ، المركز القومي للترجمة ،دار العين للنشر ،القاهرة- مصر ، ط١- ١٤٣١ه- ٢٠١٠م.

١٧- شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ج١٥/١٤ .

١٨- ينظر : التواصل اللساني والسيميائي والتربوي ٦ .

١٩- شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ١٢/ ٢٨٣ .

٢٠- المصدر نفسه ١٤/ ٢٣ .

٢١- شرح نهج البلاغة إبن أبي الحديد ٢/ ٢٣٦ .

٢٢- شرح نهج البلاغة –إبن أبي الحديد ٥٤/٧ وما بعدها .

٢٣- شرح نهج البلاغة إبن أبي الحديد ١٥٤/٣.

١. تاريخ الطبري ،طبعة دار التراث ، بيروت - لبنان ، تح : مكتب التراث . د.ت.
٢. التواصل اللساني والسيميائي والتربوي ،د. جميل حمداوي ،د.ت.
٣. سيكولوجية الاتصال ، طلعت منصور ، عالم الفكر، الكويت، المجلد ١١ ، ١٩٨٠م .
٤. شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،مكتبة طريق المعرفة ،بغداد – العراق،ط١- ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.
٥. الطبقات الكبرى لإبن سعد، تحقيق د. علي محمد عمر ،مكتبة الخانجي ،القاهرة – مصر ،د.ت. .
٦. في التداولية المعاصرة والتواصل فصول مختارة ، أ. مولز – ك . زيلتمان –ك .أوريكيوني ، ترجمة وتعليق د. محمد نظيف ، الدار البيضاء– المغرب ، أفريقيا الشرق ٢٠١٤م .
٧. الكامل في التاريخ ،لإبن الأثير ،تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي ،بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، د.ت .
٨. المبدأ الحواري ، ترجمة فخري صالح ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت –لبنان، ط٢- ١٩٩٦م.
٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر، ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة – مصر ،ط٤ -١٣٨٤ه – ١٩٦٤م .
١٠. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ، تحقيق وفهرسة د. يوسف البقاعي ،بيروت – لبنان ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤١٢ه – ١٩٩١م
١١. النظرية النقدية – مدرسة فرانكفورت ، تأليف آلن هاو ، ترجمة ثائر ديب ، المركز القومي للترجمة ،دار العين للنشر ،القاهرة- مصر ، ط١- ١٤٣١ه- ٢٠١٠م.
١٢. النظرية النقدية التواصلية –يورغنها برماس ومدرسة فرانكفورت، تأليف: حسن مصدق ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب، ط١- ٢٠٠٥م .

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ
بسم الله الرحمن الرحيم